الذكاء المئوي لرحلة لامرتين الى الشرق

لامرتين في لبنان وسورية

تموز ١٨٣٢ – نيسان ١٨٣٣

بقلم ا. سركيس

توطئة

في مثل هذا الشهر من سنة ١٨٣٣ ، كان الشاعر الفرنسي الكبير ، الفونس دي لامرتين ، يغادر ربوع الشرق الادنى ، موجهاً نظره الى اوربة ، بعد ان قضى في سورية ولبنان عشرة اشهر ، كان في خلالها موضوعاً لمحبة اهل البلاد واكرام حكامها وامرائها.

فنحن اذن في ختام المئوية الاولى لرحلة لامرتين الى الشرق . ولقد كان من المنتظر ان تهتمّ صحافتنا بالامر فتفيه حقه منَ البحث ، تجديداً لذكر هذا الشاعر العظيم الذي شحن مذكرات رحلته بعواطف الحب والاعجاب ببلادنا وطيب هوائها ولطف سكانها ؛ ثم اجتناء لبعض ما اوحاه خياله وذبجته يراعته في وصف هذه البلاد وعادات اهلها مما يرجع بنا في الذكر الى عصر اجدادنا ، قبل مئة سنة.

ولكن شيئاً من ذلك لم يكن . ومضت السنة الموافقة لاشهر الرحلة ، ولم يتكلم احد بالموضوع ، فيا نعلم ؛ اللهم ! الا بعض الفرنسويين ، واللبنانيين المقيمين في باريس[1] .

١) علمنا ، بعد ان اعددنا هذا المقال للطبع ، انه قد تألفت لجنة في باريس ولجنة في لبنان للاحتفال بهذه الذكرى في شهري نيسان وايار . وانه سيكون من جملة الحفلات التذكارية حفلة كبيرة تُقام في قصر بيت الدين ، حيث نزل الشاعر ضيفاً على الامير بشير الثاني . فنرتا ان يتحقق املنا ، وان تأخرًا.

لذلك رأينا ان ننشر ، على صفحات « المشرق » ، بعض معلومات تعرفنا بلامرتين ومكانه في عالم الادب ؛ واهم ادوار سياحته في بلادنا ؛ ووصف كتابه « رحلة الى الشرق ». ثم نزدفها بتعريب فصول من هذا الكتاب ، نختارها مما له فائدة تاريخية او ادبية.

ولم نتعرض ، في كل ذلك ، للابحاث الدينية او السياسية ، لعلمنا ان هذه المنازعات لا تفيد القرّاء شيئاً ، لاسيما وان كل ما دوّنه لامرتين من هذا النوع انما كان شؤوناً ظرفية مضى وقتها . ولا بدّ من الاشارة الى اننا تبعنا ، في سرد حوادث الرحلة ووصف اماكنها ، ما دوّنه لامرتين نفسه في كتابه ، تاركين تمحيص ذلك وتمليله وعرضه على محكّ الانتقاد لمن يهمهم الامر.

وعلى كل فلنا الامل الوطيد اننا ارضينا القرّاء الكرام ، وقمنا ، في خدمة الادب ، ببعض الواجب.

١

لامرتين

١٧٩٠—١٨٦٩

حياته

في البيت الابوي

الفونس - ماري - لويس برا دي لامرتين . ولد بكرًا لستّ اخوات ، في ٢١ تشرين الاول من سنة ١٧٩٠ ، في بلدة ماكون (Mâcon) الواقعة على نهر الصُون (Saône) ، شرقي فرنسة.

اما ابوه فكان سليل اسرة عريقة في النبل ، مثالًا للصدق والاستقامة . واما والدته فقد اشتهرت بين نساء عصرها بذكاء العقل ، ورقة القلب ، وحرارة التقوى . فكان لعنايتها واخلاقها هذه تأثير لا ينكر في تثقيف ابنها وتهيئة نبوغه . ولما كان الفونس الصبي الوحيد لوالديه ، فقد ربّياه على الدلال والتنج ، الامر الذي جعله رقيق الحاشية ، لطيف المزاج.

ولم يبلغ سنّ السادسة عشرة ، حتى كان قد انهى جميع دروسه في معاهد كبيرة . فعاد الى ماكون ، واقام في البيت الابوي يطالع ، ويتأمل ، ويبني صروح الآمال العالية ؛ وينظم ، بين حين وآخر ، قصائد على طريقة ذلك العصر : يشوبها التكلف والتلاعب اللفظي ، وتنقصها المعاني الحية المبتكرة .

وفي سنة ١٨١٠ زار ايطالية ، بلاد الفنّ والجمال ؛ فرجع منها حاملًا في مخيّلته احساساً قوياً ، ضمه الى شعوره الماكوني الدقيق ، ورقة اخلاقه الطبيعية .

في العالم

اعيد الحكم الملكي الى فرنسة سنة ١٨١٤ ، على اثر سقوط نابوليون في ايدي الحلفاء ، واعتلى العرش لويس الثامن عشر البوربوني ؛ فعين لامرتين ضابطاً في فرقة الحرس الملكي .

ولكن ثورة « المئة يوم » وحروبها ابعدته عن اعمال الحكومة ؛ فعاش حرًّا ، تارة في ماكون او باريس ؛ واخرى في الاسفار والسياحات . وكان ، في اثناء سفره الى ايطالية ، قد تعرّف الى فتاة تكلم عنها باسم الفيرا (Elvire) ، واحبها كثيرًا ، وكان يرجو ان يتزوجها . بيد ان الموت حال بينه وبين امنيته هذه ؛ فشقّ عليه الامر ، وافاض ينبوع شعوره ؛ فاخذ ينظم القصائد الرقيقة ، التي شهرته في اندية باريس ، والتي نشرها سنة ١٨٢٠ بعنوان « التأملات » فنالت رواجاً عظيماً ، وكانت سلّم لامرتين الى المجد الادبي . حتى ان لويس الثامن عشر ، اظهارًا لتقديره نبوغ الشاعر ، عينه كاتم سرّ السفارة الفرنسية في فلورنسة . والندوة الفرنسية (L'Académie) انتخبته عضوًا عاملًا فيها .

وكانت ثورة سنة ١٨٣٠ ، التي اسقطت عن العرش شارل العاشر ، آخر ملك من فرع السلالة البوربونية البكر . فاستقال لامرتين من منصبه حفظاً لعهد مليكه المعزول . وكانت نفسه تتوق الى سياحة في الشرق ؛ فقام بها سنة ١٨٣٢ . ولما عاد منها سنة ١٨٣٣ ، كان قد انتُخب عضوًا لمجلس النواب . فابتدأت حينئذٍ حياته الجدّية في السياسة . ولما نشبت ثورة سنة ١٨٤٨ ، التي كان ، بمؤلفاته ، اكبر مساعد على اشعال نارها ، عيّن وزيرًا للخارجية في الجمهورية الاولى ، التي انشئت اذ ذاك .

ولكن اعتلاء لويس نابوليون كرسي رئاسة الجمهورية سنة ١٨٥٠ جعل لامرتين يعتزل السياسة نهائياً ، ويرجع الى الحياة الادبية التي لم يتركها حتى في أبان اشتغاله في السياسة.

الشيخوخة والفقر

غير ان الجمهور سريعاً ما ينسى تحمساته الماضية ! فهو لا ينظر الّا الى يومه . ولم يكن الجمهور الفرنسي ليحيد عن هذه القاعدة لاجل لامرتين . فان « التأملات » كانت قد تنوسيت ، ونبوغ لامرتين ضعف بحكم الطبيعة . فقلّ عدد قرّائه ، واخذ اسمه بالخمول . حتى دخل في ضيق مالي التزم معه ان يشتغل بالتأليف « الاجباري » ، كما قال هو نفسه ، ليسدّ ديونه . فكان يترجى القرّاء ليشتركوا في طبع كتبه . والحقيقة ان هذه الكتب التي كان يعرضها على القراء لا تليق بشاعر مثله .

وذكرت له الحكومة خدماته السابقة ، فقدمت له رأس مال يساوي خمسمائة الف فرنك لم يمنعه ان يقضي شيخوخة فقيرة ، شأن كل اديب لا مورد له سوى نتاج عبقريته .

ومات لامرتين سنة ١٨٦٩ فدفن بكل بساطة في سان - پوان (Saint Point) قرب ماكون ، حيث لا يزال قبره الى اليوم .

آثاره

خلف لامرتين ما يقارب العشرين مؤلفاً ، منها شعر ومنها نثر . ولكن قيمتها تتفاوت تفاوتاً كبيراً .

اما في الشعر فاهم مؤلفاته :

التأملات الاولى (*Les Méditations*) سنة ١٨٢٠ . وفي هذه المجموعة اجل قصائده ، كالبحيرة (*Le Lac*) ، والوادي (*Le Vallon*) ، والخلوة (*L'Isolement*) ، والمساء (*Le soir*) .

التأملات الجديدة (*Les Nouvelles Méditations*) سنة ١٨٢٣ . ومنها :

الماضي (*Le Passé*)، والشاعر على فراش الموت (*Le Poète mourant*)، والمصلوب (*Le Crucifix*).

موت سقراط (*La Mort de Socrate*) سنة ١٨٢٤. نظم فيه قسماً كبيراً من محادثات سقراط الاخيرة واخبار موته المذكورة في كتاب فيدون (*Phédon*) لافلاطون.

الانغام الشعرية والدينية (*Les Harmonies poétiques et religieuses*) سنة ١٨٣٠

الاختلاجات الشعرية (*Les Recueillements poétiques*) سنة ١٨٣٩ الخ.

وله ملحمتان شعريتان جرّب ان ينظم فيهما تاريخ البشرية كما تخيله. فلم يوفق الى غايته كل التوفق. لانه، بعكس هوغو، لم يُعطَ موهبة التوسع في المواضيع الفسيحة الخارجة عنه «فهو لا يعرف ولا يقدر ان يتكلم الا باسم نفسه.»[1] والملحمتان هما جوسلين (*Jocelyn*) (١٨٣٦)؛ وسقوط ملاك (*La Chute d'un Ange*) (١٨٣٨).

اما آثاره النثرية فاهمها واجدرها بالذكر كتاب «الرحلة الى الشرق» (*Voyage en Orient*) (١٨٣٥) الذي سنتكلم عنه. وما بقي منها فاغا كتبه لامرتين في اواخر حياته للتكسب، مثل تاريخ الجيروندان (*Histoire des Girondins*) في ثمانية مجلدات (١٨٤٧)؛ ورواية غرازيلا (*Graziella*)؛ وتاريخ الثورة، وتاريخ الآداب للعموم (*Cours familier de littérature*) ... الخ. وكلها لا تليق بعبقريته.

وللامرتين، عدا ذلك، خطب وتقارير عديدة القاها في ابان مجده السياسي من سنة ١٨٣٣ الى سنة ١٨٤٨ ولكنها لم تشتهر في عالم الادب كما ان صاحبها لم يشتهر في عالم الادارة. فهو على حدّ ما قيل فيه: «قيثارة تلحن انشيد الحبّ، لا حكيم يدير دفة السياسة.»

---

1) Sainte Beuve. *Portraits contemporains*, octobre 1832.

شعره

« ليس لامرتين شاعرًا ، بل هو الشعر بعينه ! »

بهذه الكلمات الوجيزة حدد ڤيكتور هوغو شخصية لامرتين الادبية.

ويكفي ان نعرف ما كان عليه الشعر في ذلك العصر ، وما جدّد فيه لامرتين ، لنفهم قوة هذا التحديد وخلوّه من المغالاة الزائفة.

كان القرن الثامن عشر في فرنسة يسمى عصر العلم ، لان الادباء انصرفوا فيه عن المواضيع النفسية الى الابحاث الفلسفية والعلمية. فاخذ الادب بالانحطاط ، وقلّت فيه العاطفة الحقيقيّة ، لانه ابتعد عن المصدر الاول ، اي النفس الانسانية وشواعرها.

ودخل القرن التاسع عشر ، والشعر لم يزل على هذه الطريقة من تكديس الالفاظ التي لا تدلّ على كثير من المعاني . زد على ذلك ان القوم كانوا خارجين من عهد ثورة ، وانقلاب سياسي عظيم ، وحروب داخلية وخارجية اودت بالكثير من الرجال . فكانت النفوس بانتظار شاعر ينشد حالتها التعسة من حزن والم ورجاء..

في مثل هذه الحالة ظهرت « تأملات » لامرتين سنة ١٨٢٠ . فاقبل عليها القرّاء اقبال العطاش على مورد صافٍ قريب المنال ؛ وطارت شهرة صاحبها في فرنسة ، ولاسيما في اندية باريس ؛ واصبح المتأدبون ولا همّ لهم سوى الكلام عن «التأملات» واستظهار قصائدها لتكرارها في محادثاتهم ؛ مثل البحيرة ، والخلوة ، والوادي . . .

والحقّ ان ميلهم الى هذا الشاعر لم يكن جزافًا . فان لامرتين حقّق احلام اهل عصره بما سكبه في شعره البالغ اقصى حدود الرقة من العواطف الانسانية الصحيحة الصادرة عن ألم صادق ، والتي تبتدئ بانة اسف ، وتنتهي بابتسامة الرجاء العذبة.

ولدينا شهادات عديدة تدلّ على ان لامرتين كان ذلك الشاعر الملهم الذي لحّن على اوتار القلب البشري شعور جميع قرائه وعواطفهم . من ذلك ما

كتبته السيدة لامرتين ، امّ الشاعر ، وكأنها تكلمت بلسان كل نساء فرنسة :

« بث اليّ الفونس بعض ابيات نظمها ؛ وقد اثرت فيّ كثيراً . انه يتكلمها افكر به ، فكأنه لدي . نعم اني كثيراً ما اشعر بالعواطف السامية ؛ ولكني ارى نفسي خرساء عندما اريد ان اعبّر عنها ، حتى فه . وحينما اتأمل ، يصبح قلبي اتوناً كثير الضرام لا يستطيع لهيبه اغلاقاً . ولكن افه المصغي اليّ لا يحتاج الى كلماتي . فاشكره لانه اعطى لابني ان يتكلم بلساني . »

ومما قاله السيد كوفيه (Cuvier) عضو الندوة الفرنسية (*l'Académie*) :

« اذا كان احدنا ممتزلاً ، طلباً للترهة والراحة ، في احدى ساعات الحزن واليأس التي تستولي احياناً ، حتى على القلوب الجبارة ؛ واتفق له ان يسمع من بعيد صوتاً رخيماً شجياً يتغنى بعواطف تشبه عواطفه ، فانه يشعر بارتياح وبجاذب داخلي ، اذ يحسّ ان اوتار قلبه التي ارخاها الدهر عادت الى الاهتزاز . واذا تدرج هذا الصوت الذي يصف آلامه ، فامتزج بشيء من الرجاء والتعزية ، فان الحياة تنتعش فيه ، فيتعلّق قلبه بالصديق المجهول الذي ردّها اليه ، ويودّ لو يتاح له ان يضمّه الى صدره ، ويشكر له كل ما جاد به عليه : ذلك كان تأثير لامرتين على النفوس الحساسة ، المتألمة لسرّ الوجود ! » (١

اما طريقة لامرتين في اكثر قصائده ، التي تميّز شخصيته ، فهي ان يبتدئ بوصف مشهد طبيعي ، او اعادة تذكار ماضٍ فيجرّه ذلك الى الكآبة ، فالحسرة ، فاليأس احياناً ؛ ولكنه لا يلبث ان يشعر بتأثير الطبيعة وجمالها ، فيرجع الامل والهدوء الى قلبه ؛ حتى انه يتمنى الموت ليتحد بالله ، منشئ الطبيعة ، ومصدر كل تعزية ، وغاية كل امل .

هذا اذا لم تكن القصيدة تاريخية او اجتماعية . فانه يندفع حينئذٍ بعاطفته الحرّة الجيّاشة كالسيل الجارف .

اما اسلوبه الانشائي ، فلين ، عذب ، سهل المنال ، قريب الى الافهام . ان لامرتين شاعر من طبيعته ، نابغ منذ نشأته ، والشعر هو « لغته الطبيعية ، كلما جاشت عواطفه من الم عميق او ازدحمت افكاره امام مشهد جميل . » (٢ وقد اعرب عن ذلك في قصيدته الجميلة المشهورة ، « الشاعر على فراش الموت » ؛ ومنها قوله : « لقد انشدت الشعر كما يتنفس الانسان ، وكما تسجع الطير ، وكما

(١ Des Granges: *Hist. illust. de la Littérat. Française, p. 792*

(٢ الرحلة الى الشرق – *Voyage en Orient* – ، طبعة ١٨٤٦ ، ٢ : ٢٦

تَرفر الريح ، وكما تدندن المياه في جريانها . » [1] فلم يجتهد يوما ان ينتق عبارته ، او يبحث عن المعاني والتراكيب العريصة . لذلك عاب عليه المدققون ضعف انشائه . ولذلك ايضاً خمد ذكره في اواخر القرن الماضي ، ايام صارت الامارة الشعرية الى البرناسيين (Parnassiens) ، المشهورين بغيرتهم على المتانة اللغوية والتحسين البياني . اما اليوم فقد رفعه النقّاد الى المرتبة التي تليق به ، واظهروا ما في شعره من المحاسن ؛ حتى ان الكثيرين يعدّونه اعظم شعراء القرن التاسع عشر ، واضعينه فوق ڤيكتور هوغو . ولا بدع فان هوغو نفسه شهد له بالتفوق اذ قال :

« ليس لامرتين شاعراً ، بل هو الشعر بعينه ! »

***

هذا هو الرجل الذي زار بلادنا لمئة سنة خلت ؛ وخلّف اسمه ضيفاً ابدياً في اكثر معالمها . فهذه غرفة لامرتين في بيت الدين ؛ وهذا بيت لامرتين في حمّانا ؛ وهذه ارزة لامرتين الخالدة . وهذه . . . وتلك . . . ذكريات كثيرة .

وهذا هو الرجل الذي رأينا من الواجب احياء ذكره وبثّ محبته بين ابناء البلاد ، لانه كان السابق الى حبنا ، كما سنرى من درس رحلته .

---

(١) *Nouvelles Méditations Poétiques*, Le Poète Mourant.

(له صلة)